نظرات في سر نشأة النحو

د. حسن محمد حسن مفرق

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى

hasan.1398@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.36473/ujhss.v60i4.1818

تاريخ الاستلام : 15/ 1/ 2021

تاريخ القبول : 22/ 2/ 2021

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

المستخلص

هذا البحث يراجع مرويات مشهورة في نشأة النحو بغية الوصول إلى سر نشأة النحو والغموض الذي يحف تلك النشأة. ظهر للباحث أن حاجة الموالي للتكيّف واغتنام الفرص في ظل الثقافة الجديدة هو ما حدا بهم إلى محاولة تعلم اللغة وإتقانها. لقد كانت لهم جهود جبارة في صناعة النحو العربي فرضت على من أراد الدخول في غمار هذا العلم أن يتبع القواعد التي على أساسها بُني. لقد كانت علوم اللغة والتميّز في طلبها وتعلميها هو بوابة الحصول على وظائف الدولة وامتيازاتها. مع ذلك؛ أثر ذلك الواقع على مسيرة الدرس النحوي الذي لم يستطع الخروج من ربقة المنظور التقليدي للتراكيب العربية وارتباطاتها.

كلمات مفتاحية: النحو، الموالي، الإعراب، الفصحى

Perspectives in the Mystery of the Origin of Arabic Grammar

Hasan Mohammed Mfreg

Umm Alqura University

hasan.1398@gmail.com

Abstract

This research reviews famous stories in the emerging of grammar so that we can detect the mystery that surrounds that emerging. It seemed that the need of the foreigners to adapt and seize opportunities in the new culture is what led them to try to learn and master the language. They had tremendous efforts in the establishment of Arabic grammar, forcing those who wanted to enter the field of this science to follow the rules on which Arabic syntax was built. Being skilled in Arabic linguistics had been in demand in order to gain opportunities to obtain state jobs and privileges in that era. Therefore, the track of studying and teaching Arabic was affected by the mentality of foreigners and their view to Arabic, and that path was the only one toward standard Arabic.

Keywords: Syntax, foreigners, analysis, standard Arabic

المقدمة

إنّ نحو الجملة هو عماد الدراسات اللسانية العربية والذي أدى لذلك من وجهة نظري هو نشوء الحاجة لتعلم اللغة العربية من قبل الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجا. إنّ غير المتحدث بالعربية ليس له سبيل إلى الحديث بلغة القرآن دون أن يدرك ويستوعب طريقة بناء الجملة العربية. إنّ مقولة الحاجة أم الاختراع هي مقولة صائبة يُستأنس بها هنا، فالعرب لم يكونوا بحاجة إلى الدرس النحوي الذي نشأ واصفا للغتهم حينا ومعيارا لحديثهم حتى يميز صحيحه من خطئه. اللغة العربية كانت سليقة يتحدث بها العرب سواء أطابقت المعيار الذي قرّره النحاة أم لا لأنّ المتحدث بلغته الأم يتقن جملة تراكيبها قبل السابعة، لذلك فنحن لن نضيف له شيئا إن أخبرناه أن الجملة التي يكوّنها لابد لها من مبتدأ وخبر أو من فعل

وفاعل. إنه يستخدم كل التراكيب المستعملة في لغته بحكم السليقة التي نشأت من كثرة سماعه لتلك التراكيب من البيئة اللغوية التي نشأ فيها. لذلك فالنحو العربي لم ينشأ ليعلّم العربي نوعية التراكيب الصحيحة التي يستعملها والتي لا يجوز له استعمالها، إذ إنه مستبطن لتلك المعرفة اللغوية ويتحدّثها دون حاجة لإعمال الذهن في تمييز الصحيح من غيره. إنّ المتحدث الأصلي للغة ما لا يحتاج لنحوها الواصف لها إلا إن كان له هدف تعليمي وخصوصا لغير الناطقين لأن الناطقين باللغة كثيرا ما يستصعبون النحو الواصف للغتهم مع أنهم يتكلمونها ملكة وسليقة.

قد يقول قائل إنّ النحو إذاً نشأ ليساعد على فهم القرآن. الحقيقة في نظري أن العرب كانت تعرف وتفهم من القرآن ما لا يعرفه من صنع النحو العربي. إن القرآن الكريم كتاب معجز لكنه مبين والعربي البسيط يستطيع أن يفهم منه ما هو بحاجة إليه على حسب مستواه المعرفي. إن كان عاميا فسيدرك أصول الدين التي يحتاجها ومفاهيم الإسلام وتصوراته العامة للدنيا والآخرة بحكم أن القرآن نزل بلسان عربي مبين. أما إن كان العربي ضليعا في اللغة وتراكيبها وصنعتها الفنية والأدبية فإنه سيدرك لطائف ومعاني أعمق من كتاب الله بحكم مقامه المعرفي الذي ينتمي إليه. إنّ النحو العربي لم ينشأ في نظري ليساعد العربي في فهم القرآن والدليل على ذلك أنّ كثيراً من المعايير التي قررها النحاة أتت بخلاف الاستعمال القرآني.

قد يقول قائل لكنّ هناك كتبا وآثارا كثيرة تتحدث عن شيوع اللحن وأنه كان السبب في وضع علم النحو. لا أتفق مع ذلك الرأي لأن اللحن الذي تحدثوا عنه غالبا كان عبارة عن أخطاء في استخدام العلامة الإعرابية المناسبة. إنّ هذا يقودنا لسؤال آخر. هل للعلامة الإعرابية أثر في المعنى أم لا؟ هناك آراء مختلفة قديما وحديثا حول أهمية العلامة الإعرابية وأثرها في تحديد المعنى وقد كانت الكثرة تؤيد الرأي الذي يرى لها أثرا في تحديد المعنى. إنّ هذا الرأي في نظري غير صحيح فالمعنى يتّضح من موقعية العناصر اللغوية وارتباطاتها داخل التركيب وليس من العلامة الإعرابية التي تظهر على آخر الكلمة. تقول إحدى روايات نشأة النحو إن هناك من قرأ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ (فاطر: ٢٨) «برفع الأول ونصب الثاني فوقع في الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقيل له يا هذا،

إن الله لا يخشى أحدا، فتنبه لذلك وتفطن له.». (القلقشندي، 1922، ج 1، ص 169) (A Al-Qalqashandi, 1922, 1, P 169) إنّ المتحدث بالعربية حين يُقرأُ عليه قوله تعالى: ﴿ إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ برفع لفظ الجلالة لن يفهم منه أن الله هو الذي يخشى العلماء بل سيفهم أن الخاشي هم العلماء سواء رفعت الكلمة أو نصبتها. الذي سيقع في حيرة _ كما أرى _ هو الأعجمي الذي يرى أن الفاعل لا تتحقق فاعليته إلا بالضمة التي توضع على آخر الكلمة. يؤيد ما ذهبت إليه أنها وردت في إحدى القراءات برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء قال الألوسي: «وروي عن عمر بن عبدالعزيز وأبي حنيفة _ رضي الله تعالى عنهما _ أنهما قرءا (إنما يخشى الله) بالرفع (العلماء) بالنصب». (الألوسي، ج ٨، ص ٣٦٣ Al-Alousi, 8, P 363) () لا أظن عاقلا يذهب لتكفير من قرأ بتلك القراءة إلا إن كانت معرفته بلسان العرب شكلية حيث لا يرى إلا أواخر الكلمات، غير فطِن لأصول اللسان العربي في تحديد موقعية العناصر اللغوية داخل التركيب وجواز تحولاتها عن مواقعها لأغراض يقتضيها السياق. إن ورودها في هذه القراءة حتى لو وصمت بالشذوذ لهو دليل على أن الحركة الإعرابية ليست هي التي تحدد المعنى بل موقع الكلمة داخل التركيب بالإضافة إلى النظر في سياق المقال والمقام.

أنا أشكّك كذلك في الرواية المشهورة عن نشأة النحو والتي تقول إن أبا الأسود الدؤلي وضع النحو لأنّ ابنته لحنت في إعراب جملة حيث إنه لم يستطع أن يفهم منها هل كانت تسأل أم تخبر. تقول الرواية إنّ الذي دعا أبا الأسود الدؤلي لوضع النحو «أنّ ابنته قعدت معه في يوم قائظ شديد الحر، فأرادت التعجب من شدة الحر، فقالت: ما أشدُّ الحرِّ فقال أبوها: القيظ، وهو ما نحن فيه يا بنية، جوابا عن كلامها لأنه استفهام، فتحيّرت وظهر لها خطؤها، فعلم أبو الأسود أنها أرادت التعجب، فقال لها: قولي يا بنية: ما أشدَّ الحرَّ، فعمل باب التعجب ...» (الزبيدي، ص 21) (Al-Zubaidi, P 21)الذي أراه أنه يمكن الاعتماد على الإعراب فقط في تحديد دلالتي التعجب أو الاستفهام إن كان المتحدث إنسانا آليا (روبوتا) ينطق الأصوات على وتيرة واحدة في التنغيم. أما إن كان المتحدث بشرا تشرّب من بيئته خصائصها الصوتية فإنه قادر على إيصال المعنى والتفريق بين الأساليب اللغوية المختلفة من خلال استخدام ظواهر صوتية مهمة كالتنغيم والنبر إن كان يتحدث وأدوات

الترقيم إن كان يكتب. لو صحّت الرواية لكان أبو الأسود وقع في الهلع لجهل ابنته استعمال خصيصة صوتية يعلمها كل ناطق بالعربية بالسليقة وهي التنغيم الذي يتشربه الإنسان من بيئته اللغوية، ولم يكن سيحزن للخطأ في استعمال الحركة المناسبة على آخر الكلمة. هذا ما يليق بنا أن نظنّه بأبي الأسود؛ ذي العقل اللغوي الفذ.

رواية أخرى تقول: «أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب عليه السلام العربية فكان لا يُخرج شيئا مما أخذه عن علي بن أبي طالب عليه السلام إلى أحد حتى بعث إليه زيادٌ: اعمل شيئا تكون فيه إماما ينتفع الناس به وتُعرب به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك حتى سمع أبو الأسود قارئا يقرأ: ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهُ ﴾ (التوبة : 3) فقال: ما ظننتُ أن أمر الناس صار إلى هذا فرجع إلى زياد فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتبا لقنا يفعل ما أقول، فأتى بكاتب من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر قال أبو العباس أحسبه منهم. فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين. فهذا نقط أبي الأسود.». (السيرافي، 1955، ص 12) (Al-Serafi, 1955, P 12)إنّ الرواية تفترض أن السامع للآية لا يتبيّن معناها حتى يستقيم استخدام العلامة الإعرابية المناسبة على آخر الكلمة، وكأنّ المستمع يراقب أواخر الكلمات ليتبيّن لديه المعنى الدلالي. إنّ هذا _ في رأيي _ زعم باطل، فالعربي يدرك المعاني من الموقعية داخل تركيب الجملة، فسواءً أجررنا كلمة (رسول) أو رفعناها أو نصبناها فالعربي بل والأعجمي الذي استبطن تراكيب العربية سيدرك أن المتبرّأ منه في الآية هم المشركون فقط، بغض النظر عن الحركة الإعرابية للكلمة التي تليه وهي (ورسوله). هذه معرفة أولية بدهية يدركها العربي وغيره حين تقرأ عليه الآية. إذًا ليس الأمر كما وصفت الرواية أو حاولت أن تصف خطورة استخدام حركة الكسرة في كلمة (رسوله) بحيث إنها تجعل الرسول متبرءا منه كما تمّت البراءة من المشركين. الدليل على صحة رأيي هو أنه وردت ثلاث قراءات لهذه الآية؛ إحداها بنصب (رسوله) وهي قراءة ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وزيد بن علي، الثانية بكسرها وهي قراءة مروية عن الحسن والثالثة برفعها وهي قراءة الجمهور. (الأندلسي، 5، ص 8) (Alandalusy, 5, P 8)

إنّها روايات _في نظري_ تشير إلى محاولة تلفيق دعاوى نشأة النحو لربطه بالنصوص المقدسة من أجل بيان أهمية هذا العلم الناشئ. قد جرت العادة أن مقدمات العلوم لا تخلو من محاولة الإقناع بضرورة العلم الذي يؤلف فيه. في ذلك كما نعلم قناعة ذهنية تمنح الإنسان دافعا أكبر لبذل المجهود في تحصيل العلم وكذلك تخلق نوعا من التقدير الذي يحتاجه الإنسان لإبراز أهميته بالتركيز على عظمة العلم الذي تخصص فيه. لا أقلل هنا من قيمة الدرس النحوي ولكنّي فقط أنبّه إلى جانب المبالغات والدعاوى التي أحاطت بنشأته والتي تحاول أن تضفي هالة من القداسة على ذلك العلم بربطه بنصوص القرآن وتبييّن معانيها. والملاحظ أن تلك الروايات اتّكأت على حديث نبوي ضعيف لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام حيث جاء في النص: «سمع رسول الله صلى الله ﷺ رجلا قرأ فلحن فقال: أرشدوا أخاكم.». (الألباني، 1992، 2، ص 315) (Al-Albani, 1992, 2, P 315) وليس المجال هنا لتفنيد تلك الروايات أو التثبت من صحتها وإنما مرادي الإشارة إلى أنها آثار نقلها اللاحق عن السابق بلا تمحيص رغبة في ترسيخ المتّجه اللغوي الذي سيطر على علم النحو بإعطاء أهمية بالغة لأواخر الكلم. تلك الروايات لو نظر المنصف في متنها لوجد الكثير منها يتعارض مع المنطق والعقل السليم. روايات تشير للضرب لمن يلحن والتشنيع عليه وكأنه ارتكب موبقة من الموبقات بينما الأمر لا يعدو كونه تطورات في الاستعمال اللغوي لا يستطيع كائنا من كان إيقافه حتى لو أرهب الناس فكريا وعنّفهم جسديا. إنّي لأجد نفسي أبرئ الخليفة العادل عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ مما روي عنه من ضرب بنيه على اللحن وأمر أحد ولاته بضرب كاتبه. تلك أخبار لا تليق بإمام تربّى في حياض من أرسله الله رحمة للعالمين. روايات عديدة عن عمر وعلي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس تخبر أنهم كانوا يضربون بنيهم على اللحن. أزعم أنها روايات صنعها نحاة يريدون قسر الناطقين على معيار ارتضوه وبنوا عليه علمهم الناشئ آنذاك. يبدو أن هناك من كان ينكر تلك الروايات ويظهر له عوارها كما نجد في النص التالي: «حدثنا مسعدة قال: كنا عند أبي أسامة فقال: نا عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنه كان يضرب بنيه على اللحن، قال: فقلت يا أبا أسامة: إن أخذنا بهذا الحديث لم تزايل الدرّة إستك.». (البغدادي، ص ٢٤٧(Al-Baghdadi, P 247))

هذا لا يعني أن الدرس النحوي الذي عني بالإعراب لا قيمة له، فالحقيقة أنه رغم التركيز على العلامة الإعرابية في الدرس النحوي إلا أن ذلك لم يكن إلا لغاية المساعدة في إنشاء التركيب الصحيح. أي إنها لم تكن هدفا بحدّ ذاتها وإنما كانت وسيلة مساعدة للطالب حتى يقوم بتركيب المفردات بطريقة سهلة يدرك صحتها من خلال العلامة الإعرابية التي تظهر غالبا على آخر الكلمة. هل كانت تلك الوسيلة مناسبة في تأليف التراكيب السليمة أم أنها عقّدت الدرس النحوي؟ وهل أدرك المؤلفون في النحو أنها مجرد وسيلة لا غاية في حدّ ذاتها؟ هذه أسئلة تحتاج إلى أبحاث جادّة مستقلة.

من كل ما سبق أستطيع القول أنّ النحو العربي نشأ مساعدة لغير العربي الذي يريد أن يتحدث لغة العرب ويفهم كلامها بما أنها لغة الدين الجديد الذي اعتنقه، بل ولغة الدولة التي نشأ في حياضها. لغة جديدة إن أتقنها فستمنحه فرصا كبيرة للترقي في مراتب الدولة والانتفاع من خيراتها. يعزّز ذلك ما يلاحظه كل قارئ لكتب النحو وطبقات مؤلفيه حيث يلاحظ أن الغالبية العظمى من علمائه الأوائل كانوا من أصول غير عربية. لقد أدركوا حاجة أبناء جلدتهم لعلم لغوي يساعدهم في معرفة أصناف مفردات اللغة الجديدة وطريقة تركيب تلك المفردات مع بعضها بطريقة تجعلهم قادرين على التواصل بالعربية.

لكن مع مرور الوقت بات هذا النحو معيارا لقياس فصاحة العربي وغيره، الأمر الذي ضاق منه وتبرّم الكثير. لهذا نجد أحد الشعراء يقول:

ولست بنحويّ يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأفحمُ

(الاستراباذي، 1982، 2، ص 28) ((al-Istrabadhi, 1982, 2, P 28

لقد ظهرت صناعة النحو وبرع فيها العجم قبل العرب بل باتت تلك الصناعة حاكما على العربي حتى وإن كان من أهل البيان كما نعلم في قصة الفرزدق المشهورة مع عبدالله بن أبي إسحاق، حين بات ابن أبي إسحاق مراقبا لأواخر الكلمات والعلامات الإعرابية حتى ضاق به الفرزدق فهجاه بقوله:

ولو كان عبدالله مولًى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

ولكن يبدو لي أنّ ابن أبي إسحاق وجد ضالته في النحو ليصغّر من قدر الفرزدق فنقد حتى هذا البيت ذاكرا أنّ الأولى أن يقول (مولى موالٍ) وليس (مولى مواليا). مع أنه منقول عن بعض العرب جرّ نحو (جوارٍ) بالفتحة فيقال (جواريَ) وذلك مثل قول الفرزدق (مولى مواليا) والألف للإطلاق. (البغدادي، 1997، 1، ص 235) (Al-Baghdadi, 1997, 1, P 235) إنّ هذا يعطينا إلماحة حول سرّ النوادر التي نجدها منثورة هنا وهناك في كتب اللغة عن حمق النحاة، فلعلّه راج في ذلك العصر ضيق منظور النحاة ومراقباتهم لشكل اللغة دون الغوص في طبقاتها الدلالية. هذا يذكرني بمقولة لأبي حيان يصف فيها الأعاجم _ الذين بسببهم وعلى أيديهم ازدهر التراث النحوي _ بنقص الإدراك فيقول: «وكانت تآليف المتقدمين أكثرها إنما هي شرح لغة ونقل سبب ونسخ وقصص لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب وبلسان العرب ، فلما فسد اللسان وكثرت العجم ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة والناقصو الإدراك، احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله . تعالى . من غرائب التركيب وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، فإن ذلك كان مركوزا في طباعهم يدركون تلك المعاني كلها من غير موقف ولا معلم لأن ذلك هو لسانهم وخطتهم وبيانهم، على أنهم كانوا يتفاوتون أيضا في الفصاحة وفي البيان.» (الأندلسي، 1، ص 120) (Al-Andalusi, 1, P 120) النص يقارن بطريقة غير مباشرة بين إدراك العربي وغير العربي للسان العربي ومدلولاته.

نعود للحديث عن ابن أبي إسحاق الذي يروى أيضا أنه «أخذ على الفرزدق بيتا في شعره، فقال: أين هذا الذي يجرُّ خصييه في المسجد؟ ألا يصلحه . عني ابن أبي إسحاق.» (الزبيدي، ص 32 _ 33) (Al-Zubaidi, P 32 _ 33) ومعلوم أن ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر كانا شعوبيين يطعنان على العرب. (الأنباري، 1985، ص 27) (Al-Anbari, 1985, P 27) «وكان ابن أبي إسحاق يقرأ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ (الأنعام: 27) بالنصب وكان يقرأ ﴿الزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَ﴾ (النور: ٢) ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ﴾ (المائدة: ٣٨) بالنصب وهو خلاف ما قرأ به القراء.» (الزبيدي، ص 33) (Al-Zubaidi, P 33) إنّ النحو لم يعد حكما على أهل البيان بل كذلك على القراءات القرآنية،

لدرجة أنه مع تطور النحو وهيمنته بات شرط قبول القراءات هو موافقتها لوجه من وجوه العربية الذي يقره النحو. هذا الشرط يدلّ إلى أي مدى بات النحاة سادة الدرس اللغوي العربي وقادة متجهات الفكر في الثقافة العربية، إذ النحو هو علم الآلة المهم الذي يخوّل من أتقنه التعاطي مع النصوص الدينية تحليلا وتفسيرا.

كذلك من الروايات التي تبيّن ضيق الكثير ذرعا بمقاييس النحاة ومعاييرهم ما روي عن عمار الكلبي حين عيب عليه بيت من شعره فقال ممتعضا:

ماذا لقينا من المستعـربين ومن قياس نحـوهم الـذي ابتــدعوا

إن قلت قافية بكرا يكــون بها بيتا خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا

قالوا لحنت وهذا ليس منتـصبا وذاك خفض وهـذا ليس يرتـفع

وحرّضوا بين عبـدالله من حـمق وبين زيد فطـال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقـهم وبين قوم على إعرابـــهم طبـعوا

ما كل قولي مشروحا لكم فخذوا ما تعـرفون وما لم تعرفوا فدعوا

لأن أرضي أرض لا تشــب بها نار المجـوس ولا تبنى بها البيـع

(ابن جني، 1، ص 255) ((Abu- Alfath, 1, P 255

ويظهر تعريضه في البيت الأخير بابتداع النحو وقياساته على أيدي الأعاجم.

قد يقول قائل إن هناك من العرب من أسهم في الدرس النحوي فأقول إن الكثرة الكاثرة التي حددت مسار الدرس النحوي هم الأعاجم، فكان لزاما على من أراد دخول حياض هذا العلم أن يسير مع الركب أو لا مكان له في هذا الميدان الجديد على العرب. من الظواهر المعلومة عن المتحدثين الجدد بأي لغة أنهم يتعلمون قواعدها ثم يبدؤون يراقبون أحاديث المتحدثين بالسليقة ويلاحظون الظواهر التي تخرج عن ما تعلموه من القواعد، ولو أتيحت لهم مكانة بين أهل اللغة التي تعلموها فيصبحون مقوّمين لألسنتهم بمعايير القواعد التي يعرفونها.

إننا لو نزعنا عن النحاة هالة القداسة فسنجد أن الجانب الطبيعي في الشخصية الإنسانية يجعل الإنسان يبحث عن تقدير الذات بوسائله الخاصة. لقد كانت العصبية العربية مستشرية أيام بني أمية ولم يكن للموالي شأن إبّان تلك الحقبة. انتشرت روح الكراهية ضد الموالي في تلك الفترة واحتقارهم حتى جرت مساواتهم في بعض الأحيان بأنجس الحيوانات في مخيلة العربي. «كانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار، أو كلب أو مولى. وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يتقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم وإن أطعموا المولى لسنّه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب.». (الأندلسي، 1983، 3، 361) (Al-Andalusi, 1983, 3, P 361) ومن المرويات الغريبة في هذا الشأن ما رواه ابن سعد أن الشعبي مر ومعه صالح بن مسلم فوجدا حمّادا بالمسجد وحوله أصحابه من الموالي ولهم ضوضاء وأصوات فقال: «والله لقد بغّض إلي هؤلاء هذا المسجد حتى تركوه أبغض إليّ من كناسة داري، معاشر الصعافقة.». (ابن سعد، 6، 263) ((Ibn Saad, 6, P 263

لا شك أنه كانت لتلك النظرة الاحتقارية لأولئك القوم آثار عميقة في نفوسهم، فالبشر لا ينسون من أساء إليهم وربما كان ذلك دافعا لمنافستهم بطرق مختلفة وقلب موازين المنافسة عليهم. هذا ما رأينا أثره بظهور دولة بني العباس التي قامت على أكتاف الأعاجم الذين سئموا من عصبية الأمويين ودولتهم. إذًا في كنف هذه الدولة الجديدة تظهر بارقة أمل جديدة لأؤلئك الأعاجم الذي دخلوا في دين الإسلام تصديقا أو رغبة ورهبة، هذا الأمل سيخولهم _ لو أجادوا استخدامه _ قيادة الأمة العربية سياسيا وثقافيا من خلال العلوم الناشئة وعلى رأسها علوم اللغة التي هي أداة الدخول لتسيير متجهات الوعي والفكر في أي ثقافة. «إن اللغة لم تكن قد احتلت خلال القرن الأول مركزا حاسما في وسط صراعات الفرق وحركات العصيان المحلية. ولم يكن فصلها عن اللهجات المختلفة ممكنا وظلت تحت أشكال مختلفة مستثمرة في مدونات معترف بها مثل القرآن (أنظر على سبيل المثال وجود قراءات مختلفة) كان لابد من عدد معيّن من التحولات لتنفصل اللغة عن العرق وبالمقابل ليتغيّر كليا مفهوم كلمة (عربي) فلا يعود يعني طبقة مغلقة تسيطر على سكان مختلفين عرقيا

وحسب... من المؤكد أن بداية العصر العباسي تسجل انفصال التكلم بالعربية عن الانتماء إلى العرق العربي. وفي هذا العصر أيضا ستنتشر العربية بسرعة فائقة وستأخذ شكل لغة موحدة وبنوع أخص شكل لغة غريبة». (زبَال، 1976، ص 133) (Zabbal, 1976, P 133) إذًا الصراع لم يعد سياسيا فحسب بل هو صراع سلطة من نوع آخر تشكل اللغة أساسه، إذ «قواعد اللغة هي أيضا في قلب الصراع، لكنه صراع على مستوى مختلف هذه المرة لأنه ليس صراعا سياسيا بشكل مباشر. موضوع الرهان هو سلطة من نموذج آخر، مؤسسة على معرفة تجد مكانها في الإدارة». (زبَال، 1976، ص 38) (Zabbal, 1976, P 38) ظهر أهم كتاب سيقوم على أساسه بناء متجه لغوي يبرز فيه الأعاجم وهو كتاب سيبويه؛ ذلك الكتاب الذي يتيح إمكانية تعلم اللغة والتحرر من ضرورة الانتماء القبلي لمعرفة اللغة فهو كتاب «مولود في قلب عملية استخراج المعرفة فهو يشارك في التمركز لكنه يؤسس في الوقت ذاته نموذجا جديدا من الممارسات: أ) فهو يعيد تجميع قراءات أو لهجات مختلفة، يدرجها ويصلها بقواعد. ب) يجعل تدريس هذه القواعد ممكنا. وهكذا يرافق التركز شكلا من احتكار المعرفة من خلال فرض تقنية معيّنة. معرفة التكلم صارت تستلزم الآن معرفة القواعد... يرسم هذا الشكل التنظيمي الحيّز الذي يجب أن تأخذ فيه مؤسسة تدريسية موضعها وأن تترابط بإدارة الدولة. وهكذا نشهد خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة تحولا في النشاط الأدبي وفي أشكال التعليم، كما نشهد نقلا لمركز الحياة الأدبية من المربد إلى المسجد.». (زبَال، 1976، ص 158) ((Zabbal, 1976, P 158

من كل ما سبق ندرك ما حدث مع ميلاد دولة بني العباس حيث تغيرت الأمور وباتت الدولة الجديدة ترحب بالكفاءات التي على رأسها إتقان لغة العرب، ولم تعد الميزة للعرق العربي بل لمن تحدث اللسان العربي وبرع فيه. لهذا وجدنا تهافت الأعاجم على تعلم اللغة وتعليمها حتى صارت تعجّ بهم قصور الخلفاء والأمراء. وما قصص الصراعات التي كانت تدور رحاها بينهم إلا رغبة البشر الطبيعية في الفوز بمكاسب دنيوية كالقرب من أهل السلطان لضمان حياة هنية وعيش رغيد. هذا ليس بخسا لقدرهم ولا حطا من جهودهم لكنه محاولة لقراءة تلك الحقبة من تاريخ العلم بمنظار متجرد. يقول تمام حسان: «لم يكد أبو الأسود وأصحابه من رجال الطبقة الأولى ينفضون أيديهم من بعض التصنيفات النحوية

الأولية كأقسام الكلم وحركات الإعراب ونحوها حتى وجد هؤلاء الموالي ضالتهم المنشودة التي تمكنّوا بواسطتها من تعلم لغة الدين والدولة والمجتمع جميعا. وهكذا انتزع الموالي الراية النحوية من أيدي العرب فكانت جمهرة النحاة منهم، ونشأ النحو على أيديهم وصنع على أعينهم، فلا ترى بعد الطبقة الأولى نحاة عربا إلا قلة لا تكاد تذكر كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وأبي عثمان المازني وعدد قليل يعد على الأصابع، وسرعان ما حوّل الموالي النحو العربي من منهج علمي إلى منهج تعليمي، وشتان بين المنهجين.» (حسان، 1420، ص 27 _ 28) (Hassan, 1420, P 27 _ 28) يشير بذلك تمام حسان إلى أن النحو تحوّل من منهج واصف للغة هدفه علمي إلى منهج معياري هدفه تعليمي. الرافعي يشير أيضا إلى علو كعب أبناء الثقافة الجديدة في العصر العباسي ملمحا إلى أثرهم في مسيرة العلم فيقول: «لما انقضت الدولة الأموية وهي بقية العهد العربي، أقبل العباسيون على اتخاذ البطانة من الفرس والديلم وغيرهم، وهم الذين كانت لهم اليد في بث العلوم واتخاذ المترجمين ونقل الكتب عن الفارسية والهندية واليونانية...». (الرافعي، 2012، ص 180) (Al-Rafi'i, 2012, P 180) إذًا فعلوم العربية من جملة العلوم التي تأثر منهجها برؤية الأعاجم الذين باتت لهم صولة وجولة في بلاط الدولة العباسية.

لقد اشتهر النحو وغيره من العلوم التي راجت بين الموالي في ذلك الزمن بأنها علوم الموالي حتى كان الأشراف من العرب يرغبون عنها. (الرافعي، 2012، ص 212) (Al-Rafi'i, 2012, P 212)يبدو أن النحو أصبح بضاعة رائجة بين الموالي حتى باتوا هم المبرّزين فيه؛ إذ على أعينهم صُنِع. يحكى عن الشعبي أنه مرّ بقوم من الموالي يتذاكرون النحو فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده. (الأندلسي، 2، ص 307) (Al-Andalusi, 2, P 307) ويقول ابن خلدون: «من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر. وإن كان منهم العربي في نسبته فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي.» ثم يشير إلى أن العلم صار من جملة الصنائع التي يروج سوقها في المجتمعات الحضرية والعرب يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجرّ إليها. إذًا فقد شُغِل العرب في العموم بالملك والسياسة تاركين حياض العلم للعجم والمولّدين. (ابن خلدون،

2001، ص 747 _ 749) (Ibn Khaldoun, 2001, P 747 _ 749) ولا شك أن الأعجمي له نظرة تميزه عن صاحب اللغة فأقام هؤلاء النحاة نحوهم على علامات الإعراب وحصروا معرفة تراكيب العربية في تلك الظاهرة الصوتية التي تلحق أواخر الكلمات زاعمين أن اللغة هي الإعراب. يرد ابن خلدون على أمثال هؤلاء بقوله: «وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة اهل صناعة الاعراب، القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم ... ولم يفقد من أحوال اللسان المدوّن إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الإعراب. وهو بعض من أحكام اللسان.» (ابن خلدون، 2001، ص 766 _ 767) ((Ibn Khaldoun, 2001, P 766 _ 767) يشير ابن خلدون بذلك إلى انحصار البحث النحوي في أواخر الكلم الذي ليس إلا جزءا من البحث النحوي، لا ينبغي حصر الدرس النحوي فيه. ويبدو تبرّم ابن خلدون واضحا من منهج النحاة في صناعة النحو فيليقي نظرة نقدية لم يكن ليستوعبها نحاة زمانه حيث بيّن أنه بالإمكان إجراء البحث النحوي على غير ما جرت به العادة لدى النحاة من التركيز على علامات الإعراب فيقول: «ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها. ولعلّها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر ...» (ابن خلدون، 2001، ص 767) (Ibn Khaldoun, 2001, P 767) وفي نظرة لسانية كأنها من شذرات علم اللغة الحديث ينبّه ابن خلدون إلى وجوب تجنّب الخلط بين البيئات اللغوية أثناء إجراء البحث اللغوي، إذ إنّ من القصور حمل اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية فلكل لغة خصائصها في الأوضاع والتصاريف وحركات الإعراب. (ابن خلدون، 2001، ص 767 _ 768) (Ibn Khaldoun, 2001, P 767 _ 768)

الخاتمة

من خلال هذا البحث لاحظنا حاجة الموالي لعلوم العربية من أجل الحصول على منافع ووظائف في الدولة العباسية الحديثة التي خلفت الدولة الأموية التي همشتهم. بالطبع هذه الحاجة البشرية ليست نقيصة تلحق بهم بل هي طبيعة إنسانية بحتة وقد قدمت فوائد كثيرة للدرس اللغوي العربي. البحث يريد نزع هالة القداسة عن تلك الجهود التي ساهمت في نشأة العلم ومحاولة النظر إليها بعين محايدة لا تستصغر ما قدمه أولئك الموالي للعربية، كما أنها في نفس الوقت لا تقدّسه حتى يكون في دائرة المحظور نقده لارتباطه بعلوم الدين. الدرس اللغوي اتخذ مسارا على أيدي أولئك الموالي جعل كل من أتى بعدهم أسير إدراكهم للغة. في رأيي أنه لو صُنِع النحو العربي على أعين عرب أقحاح يعرفون العربية ويدركون طبقات دلالاتها لوجدنا مسار مختلفا. من المحتمل أن ذلك المسار كان سيسهل على أبناء الجيل تعلم الأساليب اللغوية الصحيحة حديثا وكتابة، ولم يكن ليحصر الدرس النحوي في عمليات تحليلية معقدة لا هم لها إلا إدراك العلامة الصوتية الأخيرة على آخر الكلمة التي يزعم أنها وسيلة الفهم الدلالي السليم.

المصادر:

- أبو البركات، كمال الدين عبدالرحمن بن محمد الأنباري، ١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائى، ط٣، مكتبة المنار، الأردن . الزرقاء
- أبو العباس، أحمد القلقشندي، ١٣٤٠هـ . ١٩٢٢م، صبح الأعشى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة
- أبو الفتح، عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان

- أبو بكر، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان
- أبو بكر، محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف
- أبو حيان، الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل عبدالموجود، علي معوض، زكريا النوتي، أحمد الجمل، دار الكتب العلمية
- أبو سعيد، السيرافي،١٣٧٤هـ . ١٩٥٥م، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
- ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، ١٤٠٢هـ . ١٩٨٢م، شرح شافية ابن الحاجب، مع شرح شواهده لعبدالقادر البغدادي، حققهمهاوضبط غريبهما وشرح مبهمهما: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان
- ابن خلدون،٢٠٠١م، المقدمة، ضبط ووضع الهوامش والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان
- الألباني، محمد ناصر الدين،١٤١٢هـ . ١٩٩٢م، السلسلة الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، ط1، مكتبة المعارف، الرياض
- الألوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبطه وصححه: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان
- الأندلسي، أحمد بن محمد عبدربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان
- البغدادي، عبدالقادر بن عمر، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، ١٤١٨هـ . ١٩٩٧م، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي بالقاهرة

- الرافعي، مصطفى صادق، 2012، تارخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
- حسان، تمام، 1420هـ، الأصول؛ دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة
- زبَال، فرنسوا، 1976م، تكوَن الكتاب العربي، معهد الإنماءالعربي، بيروت

References

- Ibn al-Hajib, Radhi al-Din Muhammad ibn al-Hasan al-Istrabadhi, 1402 AH – 1982 CE, Explanation of Shafia Ibn al-Hajib, with an explanation of his evidence: Abdul Qadir al-Baghdadi, investigated them, seized their peculiarities and explained their ambiguities: Muhammad Nur al-Hassan, Muhammad al-Zafzaf, Muhammad Muhi al-Din Abdul Hamid, Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beirut-Lebanon
- Ibn Khaldoun, 2001 AD, Introduction, making margins and indexes: Khalil Shehaza
  Revision: Suhail Zakar, Dar Al Fikr for Printing, Publishing and Distribution, Beirut – Lebanon
- Ibn Saad, The Tabaqat, study and reviewing: Muhammad Abdel-Qader Atta, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut – Lebanon
- Abu al-Abbas, Ahmad al-Qalqashandi, 1340 AH - 1922 CE, Subuh al-Asha, Egyptian House of Books Press, Cairo
- Abu Al-Barakat, Kamal Al-Din Abd Al-Rahman bin Muhammad Al-Anbari, 1405 AH - 1985 AD, Nuzhat Al-Alba Fi Tabaqat Aludaba, Edited by: Ibrahim Al-Samarrai, 3rd Edition, Al-Manar Library, Jordan – Zarqa
- Abu- Alfath, Othman bin Jani, Al-Khasais, edited by: Abd al-Hamid Hindawi, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut-Lebanon
- Abu Bakr, Ahmad bin Ali al-Khatib al-Baghdadi, The-Collector of Ethics of the Speaker and the Listener, reviewed his hadiths and commented on it: Abu Abdulrahman Salah bin Muhammad bin Awaida, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut-Lebanon

- Abu Bakr, Muhammad bin Al-Hassan Al-Zubaidi, Tabaqat of Grammarians and Linguists, edited by: Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, ed
- Abu Hayyan, Andalusian, Tafsir al-Bahr al-Muhit, study, investigation and commentary: Adel Abdul-Muawwad, Ali Moawad, Zakaria al-Nuti, Ahmad al-Jamal, Dar al-Kutub al-Ilmiyya
- Abu Sa`id, Al-Serafi, 1374 AH - 1955 CE, News of the Basrian Grammarians, edited by: Taha Muhammad Al-Zaini and Muhammad Abdul-Moneim Khafaji, 1st Edition, Mustafa Al-Babi Al-Halabi and his Sons Press in Egypt
- Al-Albani, Muhammad Nasir al-Din, 1412 AH - 1992 CE, The Weak and Weakened Chain and its Bad Impact on the Nation, 1st Edition, Knowledge Library, Riyadh
- Al-Alousi, Shihab al-Din, The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Great Qur'an and the Mathani Seven, corrected by: Ali Abd al-Bari Attiyah, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut-Lebanon
- Al-Andalusi, Ahmad bin Muhammad Abd Rabbo, Al-Eqd Al-Fareed, edited by: Mufid Muhammad Qumaiha, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut – Lebanon
- Al-Baghdadi, Abd al-Qadir bin Omar, Khezanat Al-Adab and Lob Libab Lisan al-Arab, 1418 AH - 1997 CE, revision and explanation: Abd al-Salam Haroun, fourth edition, Al-Khanji Library in Cairo
- Al-Rafi'i, Mustafa Sadiq, 2012, History of Arab Literature, Hindawi Foundation for Education and Culture
- Hassan, Tamam, 1420 AH, Al-Usul An Epistemological Study of Linguistic Thought among the Arabs, The World of Books, Cairo.
- Zabbal, Francois, 1976 AD, The Formation of the Arab Book, Institute for Arab Development, Beirut